الأصول النقلية في جامع البيان
للإمام ابن جرير الطبري ﴿ت 310هـ﴾

الباحثة: مريم أباديدي
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

ملخص

يهدف المقال إلى إبراز الأصول النقلية التي وظفها الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان في تأويل آي القرآن. هذه الأصول المستخرجة جُعلت تحت مباحث ومطالب، اعتنى المبحث الأول بالتعريف بالأصول النقلية، والمبحث الثاني بوجوه وشواهد لهذه الأصول. وقد صنفت هذه الأصول حسب قوتها في الاحتجاج. يعرض المقال مفهوم كل أصل نقلي وبيان درجة حجيته عند الطبري، ووجوه التفسير المندرجة تحته مع التمثيل لكل وجه.

Abstract

The article aims to highlight the transmission principles that Imam Al-Tabari employed in his interpretation.

These derived principles are categorized and discussed in two main sections: the first section introduces the principles, while the second section presents their aspects and evidence. The article classifies these principles based on their strength in supporting arguments. It elaborates on the concept of each textual principle, clarifying its level of authority in Al- Tabari view, and explores the interpretive aspects falling under each principle, providing representation for each aspect.

الكلمات المفتاحية: أصول التفسير، الطبري، الأصول النقلية.

مقدمة

الحمد الذي شرف أهل التفسير لخدمة كلام الله عز وجل، فاسترخصوا في ذلك الأنفس والمهج، وبذلوا فيه الغالي والنفيس، وأتلفوا فيه الطارف والتليد، والصلاة والسلام على من بيّن وبلّغ وعلى آله وصحبه مصابيح الدرر، ما اتصلت عين بنظر، ووعت أذن بخبر، وبعد.

فإن فهم القرآن والكشف عن معانيه من آكد الواجبات، فهو كلام العليم الخبير وأول مصادر التشريع، ومن ثم كان الوقوف على الفهم الصحيح للقرآن الكريم والمعاني الدقيقة للآيات أفضل ما يشتغل به، وأعز ما يطلب.

والقرآن الكريم كما حفظ الله تعالى فيه الألفاظ، فقد حفظ منهج فهمه، من خلال وضع قواعد وأصول تضبط العملية التفسيرية من الزيغ والانحراف، وقد ظلت هذه الأصول مبثوثة في عدد من المصادر والمراجع التي تعد من مظان هذا العلم؛ علم أصول التفسير.

ويهدف هذا المقال العلمي لبيان الأصول النقلية التي وظفها الإمام أبي جعفر ابن جرير الطبري (ت 310هـ) صاحب كتاب " جامع البيان في تأويل آي القرآن"، والقصد من ذلك التعريف بهذه الأصول وقيمتها في الفهم والاستنباط عنده.

وتكمن أهمية الموضوع في قيمته الشرعية والعلمية:

-القيمة الشرعية لعلم التفسير، ولسائر العلوم الخادمة لكلام الله عز وجل.

-القيمة العلمية لكتاب جامع البيان في تأويل آي القرآن الذي يعد من أجل التفاسير الأثرية وأعظمها شأنا في القرن الرابع بعد الهجرة، واستخراج الأصول النقلية التي وظفها الإمام الطبري في هذا التفسير سيعين على صياغة مباحث هذا العلم ومسائله.

-أهمية العناية بعلم أصول التفسير، والإسهام في بناء قانون الفهم، بدراسة جانب من أصول التفسير.

ولدراس هذا الموضوع تم اعتماد خطة البحث الآتية:

المطلب الأول: التعريف بالإمام ابن جرير الطبري وتفسيره

المطلب الثاني: مفهوم الأصول النقلية وحجيتها في جامع البيان

المطلب الثالث: نماذج من تفسير القرآن بالقرآن

المطلب الثالث: نماذج من تفسير القرآن بالسنة

المطلب الثالث: نماذج من تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

خاتمة

المطلب الأول: التعريف بالإمام ابن جرير الطبري وتفسيره

1. التعريف بالإمام ابن جرير الطبري

هو محمد، وكنيته أبو جعفر، ولم يذكر أحد ممن ترجم له سبب هذه الكنية، إذ لم يتزوج. أما نسبه فقد اتفق المؤرخون في نسبه حتى جده، فهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. أما نسبته فهي الطبري، نسبة إلى طبرستان؛ المكان الذي ولد ونشأ فيه.[1]

وقد حظي الإمام الطبري بمكانة علمية رفيعة بين أهل العلم، فأثنوا عليه خيرا، وذكروا ما أفاء الله عليه من تضلع في العلم، ومعرفة راسخة في أنواع الفنون، مما أدى إلى انفتاح قرائح العلماء في الثناء عليه فَطَارَ لَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي الْعَالَمِينَ، فهذا أبو العباس بن سريج يقول عنه: "محمد بن جرير الطبري فقيه العالم"[2].

ولكل شمس أفول، ففي يوم السبت بالعشي، السادس والعشرين من شوال سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة، أفل نجم الإمام ابن جرير الطبري بعد أن قضى عمره في كنف العلم والعلماء، ودفن رحمه الله في داره ببغداد، وكان عمره آنذاك ستا وثمانين سنة.[3]

ثانيا: التعريف بجامع البيان عن تأويل آي القرآن

يعد تفسير الإمام ابن جرير الطبري جليل الشأن، غني بشهرة نفعه عن الإطراء والبيان وهو جامع البيان عن تأويل آي القرآن، كما صرح بذلك الطبري نفسه في كتابه "تاريخ الرسل والملوك"، وهو من أقدم المدونات التفسيرية التي وصلتنا في التفسير بالمأثور، وهو تفسير على اسمه "جامع البيان" فهو قد جمع بين دفتيه فنوناً عديدة من علوم الشريعة، فتجد فيه التفسير، والعقيدة، والفقه، واللغة من نحو وصرف وأساليب العرب، كما أنه مادة دسمة لأصول التفسير.

وبجانب الأثر اعتمد الامام الطبري في تفسيره الرأي والتأويل كأصل عتيد في منهجه، ويظهر في اجتهاداته وترجيحه للأقوال بدليل معتبر وتوجيهه للقراءات ووجوه الإعراب، وتمحيصه للأسانيد.

المطلب الثاني: مفهوم الأصول النقلية وحجيتها في جامع البيان

أولا: مفهوم الأصول النقلية في جامع البيان

إن استخلاص مفهوم الأصول النقلية عند الإمام الطبري يقتضي منا الوقوف على نصوص تطبيقية لأصل تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوال الصحابة والتابعين، وذلك أن الإمام ابن جرير لم يصرح بهذا المفهوم في تفسيره، ومن جملة هذه الشواهد:

1. مفهوم تفسير القرآن بالقرآن

لم يرد في تفسير الإمام الطبري التصريح بمفهوم تفسير القرآن بالقرآن، إلا أنه يمكن معرفة ذلك من خلال تتبع عمليته التفسيرية، حيث نجده يتحدث عن القرآن الكريم، يقول: " إنّ الله تعالى ذكرُه جَمع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمته –بما أنزل إليه من كتابه– معانيَ لم يجمعْهُنّ بكتاب أنزله إلى نبيّ قبله، ولا لأمَّة من الأمم قبلهم. وذلك أنّ كُلّ كتاب أنزله جلّ ذكرُه على نبيّ من أنبيائه قبله، فإنما أنزل ببعض المعاني التي يحوي جميعَها كتابُه الذي أنزله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم...ويزيد عليه كثيرًا من المعاني التي سائرُ الكتب غيرِه منها خالٍ"[4]. وقال أيضا: "كتابَ اللهِ أَبْيَنُ البيانِ، وأصَحُّ الكلامِ"[5].

ومنه يمكن أن نصوغ مفهوما لتفسير القرآن بالقرآن يمثل رأي الإمام الطبري أو يقرب منه فنقول: تفسير القرآن بالقرآن هو شرح معاني القرآن مفردات وتراكيب، من خلال بيان سياق الآيات، وتخصيص عمومها وتقييد مطلقها وتفصيل مجملها، وبيان القراءات القرآنية.

2. مفهوم تفسير القرآن بالسنة

إن مفهوم تفسير القرآن بالسنة لم يتحدث عنه الإمام الطبري صراحة في جامع البيان، إلا أنه يمكن استنباطه من خلال إعماله لهذا الأصل أثناء عمليته التفسيرية، فيمكن القول إن تفسير القرآن بالسنة: هو التماس المفسر من السنة النبوية نصا أو معنى، يعتمده في كشف مراد الآية، وهو يشمل بيان معاني المفردات والتراكيب.

3. مفهوم تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

لم يتحدث الطبري عن مفهوم تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، إلا أنه يمكن استنباطه من خلال ثنايا تفسيره، ومنه فإن تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين: هو شرح القرآن استنادا على أقوال الصحابة والتابعين، ويشمل بيان معاني المفردات والتراكيب.

ثانيا: حجية الأصول النقلية في معاني القرآن وإعرابه

إن الناظر في نصوص كتاب جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري يجزم بحجية الأصول النقلية عند الإمام الطبري، يقول: " إن سألَنا منهم سائل فقال: إنك قد قدَّمتَ في أول كتابك هذا في وصْف البيان: بأنّ أعلاه درجة وأشرفَه مرتبة، أبلغُه في الإبانة عن حاجة المبين به عن نفسه، وأبينُه عن مُراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. وقلتَ، مع ذلك: إنّ أوْلى البيان بأن يكون كذلك، كلامُ الله جل ثناؤه، لِفَضْله على سائر الكلام وبارتفاع دَرَجته على أعلى درجات البيان"[6]، فقد احتج بالقرآن في مواضع كثيرة في ثنايا تفسيره، سواء في معرض بيانه المعاني، أو في سياق الترجيح بين المعاني فنجده مثلا بعد أن ذكر شواهد شعرية تدل على وجود التقديم والتأخير في اللسان العربي.. قال: "ومنه قول الله، وهو أصدق قيلٍ وأثبتُ حجةٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[7]، فخاطب ثم رجع إلى الخبر عن الغائب، ولم يقل: وَجرَين بكم"[8].

وفيما ذكرنا من الأمثلة دلالة قوية على أن أصل تفسير القرآن بالقرآن معتبر عند الإمام الطبري يحتج به في بيان معاني الآيات.

ومما يدل على عنايته بالسنة النبوية واحتجاجه بها، قوله: "" [ومن] تأويلِ القرآنِ ما لا يُدْرَكُ علمُه إلا ببيانِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وذلك تفصيلُ جُمَلِ ما في آيِه، مِن أمرِ اللَّهِ ونَهيِه، وحلالِه وحرامِه، وحدودِه وفَرائضِه، وسائرِ معاني شرائعِ دينِه،"[9]، ويظهر كذلك في ترجيحه هذا الأصل على ظاهر التنزيل، يقول: "وكأن قائلي هذا القولِ الذي ذكَرناه عن السُّدِّيّ والضحاكِ ذهَبوا إلى أن معنى الكلامِ: الطلاقُ مرّتانِ، فإمساكٌ في كلِّ واحدةٍ منهما لهنَّ بمعروفٍ، أو تسريحٌ لهنَّ بإحسانٍ.

وهذا مذهبٌ مما يحتمِلُه ظاهرُ التنزيلِ لولَا الخبرُ الذي ذكَرتُه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، الذي رواه إسماعيلُ بنُ سُميعٍ، عن أبي رَزِينٍ، فإنَّ اتباعَ الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أوْلى بنا مِن غيرِه. فإذ كان ذلك هو الواجبَ"[10].

ويظهر اعتداد الإمام الزجاج بتفسير الصحابة والتابعين في ترجيحه لقول الصحابي على غيره من الأقوال مما يدل على قوة هذا الأصل، عند تفسيره لقوله عز وجل ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[11]، قال الطبري: " وقد زعم بعض أهل العربية أنّ معنى قوله: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، أنه متشابهٌ في الفضل، أي كل واحد منه له من الفضْل في نحوه، مثلُ الذي للآخر في نحوه.

وليس هذا قولا نستجيز التشاغلَ بالدلالة على فساده، لخروجه عن قول جميع علماء أهل التأويل. وحسبُ قولٍ – بخروجه عن قول جميع أهل العلم – دلالةٌ على خطئه"[12].

المطلب الثالث: نماذج من تفسير القرآن بالقرآن

أولا: تفسير مفردات القرآن بالقرآن

تفسير مفردة بآية من المسائل التي تندرج تحت أصل تفسير القرآن بالقرآن، وهو من المسائل التي اعتمدها الطبري رحمه الله في بيان معاني المفردات ومن ذلك؛

قال الطبري: "قال ابن زيدٍ في قوله: ﴿صَعِيداً جُرُزاً﴾[13]. قال: الجُرُزُ الأرضُ التي ليس فيها شيءٌ، ألا ترى أنَّه يقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ اَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلَارْضِ اِلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعاً﴾[14]. قال: والجُرُزُ لا شيء فيها؛ لا نبات ولا منفعة. والصَّعيدُ المستوى. وقرأ: ﴿لَّا تَرِيٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً﴾[15]. قال: مُسْتوِيةٌ."[16]

ففسر مفردة "الجرز" بآيات وردت في كل من سورة السجدة وطه، ولم يرجح بين هذه المعاني لتنوعها وتكاملها.

ثانيا: تفسير معاني آيات القرآن بالقرآن

يعمد الطبري إلى إعمال بعض الآيات لإيضاح معاني آيات أخرى أو لبيان أسلوبها، وهذا من وجوه تفسير القرآن بالقرآن المعتبرة عنده.

1. تفسير آية بآية نظيرة في المعنى

قال أبو جعفر في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اِسْتَوِيٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوّٰيٰهُنَّ﴾[17]: "وإن قال لنا قائل أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء، كان قبل خلق السماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهن سبعَ سماوات، كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ اِسْتَوِيٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلَارْضِ إِيتِيَا طَوْعاً اَوْ كَرْهاً﴾[18]. والاستواء كان بعد أن خلقها دُخانًا، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سماوات."[19]

فسر الطبري آية "ثم استوى إلى السماء" الواردة في سورة البقرة بآية في سورة فصلت اشتركتا في المعنى، فهذا المثال وغيره[20] شاهد على إعمال الطبري لهذا الوجه في تفسيره للقرآن بالقرآن.

2.تفصيل مجمل آيات القرآن بالقرآن

تفصيل مجمل آية بآية أخرى هو أن يرد المجمل في آية ويرد تفصيله في آية أخرى في السورة نفسها أو في سورة أخرى.

عند تفسير قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[21]يقول الطبري: "فإن قال لنا قائلٌ: وما ذلك العذابُ الذي كانوا يسومُونهم؟

قيل: هو ما وصَفه اللهُ تعالى ذكْرُه في كتابِه فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾"[22]

في هذا المثال بيّن الطبري مجمل لفظة "العذاب " بسياق الآية، وهو من تفسير القرآن بالقرآن.

3. بيان مراد الخطاب القرآني

يقول الإمام الطبري: " وإن كان ظهر ظهور الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنما هو معني به أصحابه الذين قال الله جل ثناؤه: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ أُنظُرْنَا وَاسْمَعُواْ﴾[23]. والذي يدل على أن ذلك كذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اِللَّهِ مِن وَّلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[24]، فعاد بالخطاب في آخر الآية إلى جميعهم، وقد ابتدأ أولها بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿اَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ﴾.

لأن المراد بذلك الذين وصفت أمرهم من أصحابه. وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح: أن يخرج المتكلم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض الناس وهو قاصد به غيره، وعلى وجه الخطاب لواحدٍ وهو يقصد به جماعةً غيره، أو جماعة والمخاطب به أحدهم – وعلى وجه الخطاب للجماعة، والمقصود به أحدهم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[25]".[26]

فبين الطبري أن الخطاب وإن كان موجها للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنما هو معني به أصحابه رضي الله عنهم مستدلا بآية أخرى من سورة البقرة نفسها.

المطلب الرابع: تفسير القرآن بالسنة

أولا: تفسير مفردات القرآن بالسنة

يقول الإمام الطبري[27] في تفسير قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[28]: "وأولى التأويلين بتأويلِ هذه الآية التأويلُ الأولُ، وهو أنه مَعنيٌّ بالبخل في هذا الموضعِ منعُ الزكاةِ؛ لتظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ اللَّهِ أنه تأوَّل قولَه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: "البخيلُ الذي منَع حقَّ اللَّهِ منه، أنه يصيرُ ثعبانًا في عنقِه".[29]

فسر الطبري مفردة "البخل" بمعهود كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن معناه منع حق الزكاة.

وفي بيان معنى التربص بقول النبي صلى الله عليه وسلم، يقول ابن جرير رحمه الله[30]: "وأما قولُه: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[31] فإنه يعني به: يَحْتَبِسْنَ بأنفسِهن مُعْتَدَّاتٍ عن الأزواجِ والطِّيبِ والزينةِ والنُّقْلةِ عن المسكنِ الذي كُنَّ يَسْكُنَّه في حياةِ أزْواجِهن – أربعةَ أشهرٍ وعشْرًا، إلا أن يَكُنَّ حوَاملَ، فيكونَ عليهن مِن التربُّصِ كذلك إلى حينِ وضعِ حَمْلِهن، فإذا وَضَعْن حملَهن انْقَضَت عِدَدُهن حينَئذٍ...

وإنما قلْنا: عنَى بالتربُّصِ ما وصَفْنا؛ لتَظاهُرِ الأخْبارِ عن رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بما: حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ...عن حُميدِ بنِ نافعٍ، قال: سمِعْتُ زينبَ ابنةَ أمِّ سلمةَ تُحَدِّثُ – قال أبو كُرَيْبٍ: قال أبو أسامةَ: عن أمِّ سلمةَ – أن امرأةً تُوُفِّيَ عنها زوجُها، واشْتَكَتْ عينُها، فأتَتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تَسْتَفْتِيه في الكُحْلِ فقال: "لقد كانت إحْداكن تَكونُ في الجاهليةِ في شرِّ أحْلاسِها، فتَمْكُثُ في بيتِها حولًا إذا تُوُفِّيَ عنها زوجُها، فيَمُرُّ عليها الكلبُ فتَرْمِيه بالبَعَرةِ، أفلا أربعةَ أشهرٍ وعَشْرًا! "[32].

ثانيا: تفسير آيات القرآن بالسنة

تفسير آية ببيان معناها أو أكثر بالسنة، هو أن يورد المفسر كل المعاني المحتملة للآية ويستشهد لها كلها أو لبعضها بالسنة دون ترجيح، وقد يورد الحديث بصيغة الجزم، كما قد يورده بصيغة التمريض وهو الغالب أو يذكره ضمنيا.

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[33]: "ومعنى قوله: ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: تستجيرون به من عدوِّكم، وتدعُونَه للنصرِ عليهم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يقولُ: فأجاب دعاءَكم بأَنِّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكةِ يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويلِ، وجاءت الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عمر بن الخطابِ رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر ونظَر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعِدَّتِهم، ونظر إلى أصحابه نيِّفًا على ثلاثمائة، فاستقبل القبلة، فجعل يدعو ويقولُ: "**اللهمَّ أنْجِز لي ما وَعدتَني، اللهم إن تَهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تُعبَدْ في الأرض**"[34]...فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾."[35]

بيّن ابن جرير رحمه الله معنى آية الاستغاثة بالله بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر.

وقد استعمل الطبري رحمه الله هذا الأصل في التخصيص اللفظي بقول النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: " القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[36]: فإن قال: أو ليس وإن كان تأويل ذلك ما ذكرت، فلله كل ما دونه الخلق خلقه!

قيل: بلى!

فإن قال: فكيف خص المشارق والمغارب بالخبر عنها أنها له في هذا الموضع، دون سائر الأشياء غيرها؟

قيل: قد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله خص الله ذكر ذلك بما خصه به في هذا الموضع. ونحن مبينو الذي هو أولى بتأويل الآية بعد ذكرنا أقوالهم في ذلك. فقال بعضهم: خص الله جل ثناؤه ذلك بالخبر، من أجل أن اليهود كانت توجه في صلاتها وجوهها قبل بيت المقدس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة، ثم حولوا إلى الكعبة. فاستنكرت اليهود ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فقال الله تبارك وتعالى لهم: المشارق والمغارب كلها لي، أصرف وجوه عبادي كيف أشاء منها، فحيثما تُوَلوا فثم وجه الله.

قيل: بلى!

فإن قال: فكيف خص المشارق والمغارب بالخبر عنها أنها له في هذا الموضع، دون سائر الأشياء غيرها؟

قيل: قد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله خص الله ذكر ذلك بما خصه به في هذا الموضع. ونحن مبينو الذي هو أولى بتأويل الآية بعد ذكرنا أقوالهم في ذلك. فقال بعضهم: خص الله جل ثناؤه ذلك بالخبر، من أجل أن اليهود كانت توجه في صلاتها وجوهها قبل بيت المقدس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة، ثم حولوا إلى الكعبة. فاستنكرت اليهود ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فقال الله تبارك وتعالى لهم: المشارق والمغارب كلها لي، أصرف وجوه عبادي كيف أشاء منها، فحيثما تُوَلوا فثم وجه الله، عن ابنِ عباسٍ، قال: كان أولَ ما نَسَخَ اللهُ مِن القرآنِ القبلةُ، وذلك أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لما هاجَر إلى المدينةِ، وكان أكثرَ أهلِها اليهودُ، أمرَه اللهُ عز وجل أنْ يَسْتَقبلَ بيتَ المقدسِ... الحديث."[37]

المطلب الخامس: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

يتبين من خلال تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن أن الطبري رحمه الله قد سلك مسلك المفسرين في تعاملهم مع أقوال الصحابة والتابعين في التفسير بإسناد الأقوال إلى أصحابها.

أولا: تفسير مفردات القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

يقول ابن جرير: "اخْتَلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولِه: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾[38]؛ فقال بعضُهم: معناه: فما نكَحْتُم منهنَّ فجامَعْتُموهنَّ، يعنى مِن النساءِ، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعنى: صَدُقاتِهِنَّ فريضةً معلومةً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فما تمتَّعتم به منهن بأجرٍ تمتُّعَ اللذة، لا بنكاح مطلق على وجه النكاح الذي يكون بوليٍّ وشهود ومهر.

عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية على ابن عباس: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾، قال ابن عباس: "إلى أجل مسمى". قال قلت: ما أقرؤها كذلك! قال: والله لأنزلها الله كذلك! ثلاث مرات."[39]

فسّر الطبري رحمه الله مفردة "الاستمتاع" بقول الصحابي في نفس الموضوع.

ثانيا: تفسير آيات القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

الوجه الأول: تفسير آية ببيان حكمة تشريع حكمها بسبب النزول

لمعرفة أسباب النزول أهمية بالغة في تفسير القرآن الكريم ولا يجوز التصدي لتفسير كتاب الله تعالى لمن لم يحط علما بها، لأنها من أهم أسباب فهم معاني القرآن وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات.

وقد اعتنى الطبري بأسباب النزول وألحقها بالحديث، وفي هذا دلالة على أنه يعتبرها من أقوال الصحابة التي لها حكم الرفع.

يقول ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[40] ببيان حكمة تشريع حكمها بسبب النزول: "عن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، قال: كانت أختُه تحتَ رجلٍ فطلَّقها، ثم خَلا عنها، حتى إذا انقضَتْ عِدَّتُها خطَبها، فحَمِيَ مَعْقِلٌ من ذلك أَنَفًا، وقال: خَلا عنها وهو يَقْدِرُ عليها. فحال بينه وبينها، فأنزَل اللَّهُ تعالى ذكرُه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

حدَّثنا أبو كُريبٍ، قال: ثنا وَكيعٌ، عن الفضلِ بنِ دَهْمٍ، عن الحسنِ، عن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ، أن أختَه طلَّقها زوجُها، فأراد أن يُراجعَها، فمنعَها مَعْقِلٌ، فأنزل اللَّهُ تعالى ذكرُه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾."[41]

الوجه الثاني: تفسير آية بقول الصحابي أو التابعي

قال الإمام ابن جرير: "فمعقول إذًا أنّ قول القائل إذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم افتتح تاليًا سورةً، أن إتباعه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وأنه أراد بقِيلِه "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال.

وهذا الذي قلنا في تأويل ذلك، هو معنى قول ابن عباس قال: إنَّ أول ما نزل به جبريلُ على محمد، قال: "يا محمد، قُل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم" ثم قال: "قل بسم الله الرحمن الرحيم". قال: قال له جبريل: "قل بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله." .[42] فبيّن رحمه الله معنى البسملة بقول ابن عباس في الموضوع نفسه.

وفي بيان مجمل معنى الآية بفعل الصحابي، يقول الإمام الطبري في قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[43] ، "عن ابن عباسٍ، قال: قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: ألَا أتَوَضَّأُ لكم وضوءَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قال: قُلنا: نعم. فتَوَضَّأَ، فلمَّا غَسَل وجهَه، ألْقَمَ إبهامَيْه ما أقبَل مِن أُذُنَيْه. قال: ثم لما مَسَح برأسِه، مَسَح أُذُنَيه مِن ظُهورِهما."[44]

خاتمة

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظمته، الحمد الله الذي أتم علينا نعمه، الحمد الله الذي جعلنا بفضله نتم هذا البحث، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا ما بذل فيه من وقت وجهد.

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيد الأنام وعلى صحبه الكرام. أما بعد:

فمجموع ما تحصل من تحرير هذه المقالة العلمية، مكننا من اقتناص زمرة من النتائج

- ظهر من خلال تتبع العملية التفسيرية للطبري، الحضور القوي للأصول النقلية في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تتمثل في تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.
- عند تتبع الأصول النقلية التي اعتمدها الإمام الطبري في تفسيره تبين أن أصل تفسير القرآن بالقرآن قد نال حظا وافرا في بيان المفردات والتراكيب.
- يتبين أن ابن جرير رحمه الله في تفسيره للقرآن بالسنة قد سلك مسلك تفسير الآية ببيان معانيها المحتملة ثم يرجح بينها بالأدلة المعتبرة.
- من الأصول المعتبرة عند الإمام الطبري تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين؛ فوجوه تفسير مفردات القرآن وآياته بأقوال الصحابة والتابعين متنوعة.
- من خلال تصنيف ودراسة أصول النقلية في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، برزت القيمة العلمية لهذه الأصول ومدى اعتناء الطبري بها في بيان معاني الآيات.
- حرص الإمام الطبري على إيراد أصول التفسير ضمنيا، فكان لابد من الغوص في تفسيره من أجل استنباط هذه الأصول وتصنيفها.

الهوامش:

[1] معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: 6، ص: 2454، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414هـ.

[2] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج: 3، ص: 123، تحقيق: محمود الطناجي، عبد الفتاح الحلو، دار هجر، الطبعة: الثانية، 1413هـ.

[3] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج: 2، ص: 553، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

[4] جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، ج: 1، ص: 197، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

[5] المصدر نفسه، ج: 18، ص: 302.

[6] جامع البيان، ج: 1، ص: 197.

[7] سورة يونس: الآية 22.

[8] جامع البيان، ج: 1، ص: 154.

[9] المصدر نفسه، ج: 1، ص: 82.

[10] جامع البيان، ج: 4، ص: 132.

[11] سورة البقرة: الآية 24.

[12] جامع البيان، ج: 1، ص: 394.

[13] سورة الكهف: الآية 8.

[14] سورة السجدة: الآية 27.

[15] سورة طه: الآية 104.

[16] جامع البيان، ج: 15، ص: 154.

[17] سورة البقرة: الآية 28.

[18] سورة فصلت: الآية 10.

[19] جامع البيان، ج: 1، ص: 458.

[20] المصدر نفسه: ج: 1، ص: 245. ج: 1، ص: 278. ج: 1، ص: 195-196.

[21] سورة البقرة: الآية 48.

[22] جامع البيان، ج: 1، ص: 644.

[23] سورة البقرة: الآية 103.

[24] سورة البقرة: الآية 106.

[25] سورة البقرة: الآية 106.

[26] جامع البيان، ج: 2، ص: 485.

[27] المصدر نفسه، ج: 6، ص: 270.

[28] سورة آل عمران: الآية 180.

[29] صحيح البخاري، سورة آل عمران، باب: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم.

[30] جامع البيان، ج: 4، ص: 248-250.

[31] سورة البقرة: الآية 226.

[32] صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب: الحكل للحادة

[33] سورة الأنفال: الآية 9.

[34] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم.

[35] جامع البيان، ج: 11، ص: 50-51.

[36] سورة البقرة: الآية 114.

[37] سنن البيهقي، كتاب الصلاة، باب استبانة الخطأ بعد الاجتهاد

[38] سورة النساء: الآية 24.

[39] جامع البيان، ج: 6، ص: 585-586.

[40] سورة البقرة: الآية 230.

[41] جامع البيان، ج: 4، ص: 187.

[42] المصدر نفسه، ج: 1، ص: 114.

[43] سورة المائدة: الآية 7.

[44] جامع البيان، ج: 8، ص: 181.